الهايكو والمشهدية

ما معنى المشهدية في الهايكو؟ المشهدية بوجه عام اسم مشتق من كلمة مشهد ليدل على طريقة تقدم مشهدٍ أو أكثر في نص أدبي أو في غيره. وفي الهايكو لا يوجد مشهد واحد، فطبيعة الهايكو تقوم على تركيب مشهدين في القصيدة بطريقة تكون لها دلالة ولا تكون عشوائية. فمثلا نقرأ في تعريف موسوعة الويكيبيديا للهايكو الياباني ما ترجمته كالتالي: **"جوهر الهايكو يتمثل في الواصلة kiru** (وترجمتُها بـ "الواصلة" مع أن الإنجليز يترجمونها بـ "القاطعة"، واعتمدت في ترجمتي على الوظيفة التي تقوم بها هذه الواصلة في القصيدة). **ويتم تمثيل ذلك في العادة من خلال الجمع/ التجاور بين صورتين أو فكرتين، وتوجد كلمةٌ قاطعة/واصلة بينهما kireji ، وهي عبارة عن علامة ترقيم تدل على لحظة الفصل/الوصل بينهما وتُبرز طريقة ارتباط هذين العنصرين المتجاورين".**

هذا التعريف البسيط به شقان: شق عام يتعلق بطبيعة الهايكو في أي لغة وأي ثقافة، وشق خاص بطبيعة اللغة اليابانية ويمكن التعبير عنه بطرق مختلفة في اللغات والثقافات المختلفة.

بالنسبة للشق العام، لا بد من وجود صورتين أو فكرتين أو عنصرين. وتأكيد التعريف على وجود فكرتين واستعمال كلمة "عنصرين" الأعم من الصورتين والفكرتين يدل على أن قصيدة الهايكو قابلة لاستيعاب كل الحالات الإنسانية، فقد تجمع بين صورة وفكرة، أو صورة وصورة، أو فكرة وفكرة، أو صورة وإحساس، أو إحساس وإحساس، الخ. **المهم أن تكون هناك ثنائية في التعبير،** أي يوجد مستويان في التعبير يتم الجمع بينهما في القصيدة. وبالتالي تكون المشهدية هنا مشهدية واسعة، أي تتسع لأن تشمل كل الحواس، ولا تقتصر على الجانب البصري الذي غالبا ما يسرف كتّاب الهايكو العرب في استعماله، وبذلك نجدهم يقومون بتضييق ما هو متسع بالفعل.

بالنسبة للشق الخاص، يتعلق بطبيعة اللغة اليابانية كما أشرتُ أعلاه، وكل لغة لها من الإمكانات التعبيرية ما يمكّنها من أن تستعيض عن هذه الخصوصية اللغوية اليابانية بما هو متاح بالفعل في هذه اللغات. ففي اللغة العربية على سبيل المثال، العلاقة بين المبتدأ والخبر أو بين شبه الجملة والجملة أو بين الفاعل والمفعول أو بين الجملة والجملة يمكنها أن تحقق الوظيفة التعبيرية والفنية التي تقوم بها الواصلة في اللغة اليابانية، فالغرض منها أن تصل بين العنصرين وتفصل بينهما في آن: أي أن يدرك المتلقي أن هذين العنصرين عنصران مختلفان، ولكن يوجد في النص وطريقته التعبيرية ما يجعلهما يلتقيان في جانب أو أكثر. وهذا الالتقاء ينبع من الرؤية الخاصة التي ينظر بها المبدع أو الصوت في القصيدة لهذين العنصرين، وما تكشف عنه هذه الرؤية من إبصار جوانب الالتقاء بين هذين العنصرين.

وسأتناول الآن نصين من نصوص باشو كمثال تطبيقي على هذه المشهدية. ها هي إحدى قصائده

with a full wine cup
I drink to three names
this evening

بكأس خمرٍ ممتلئٌ،
أشربُ أنخابَ ثلاثة أشخاص
في هذا المساء.

من الملاحظ على الترجمة الإنجليزية، أن المترجم لا يستخدم أية علامة ترقيم ولم يستخدم الواصلة أو القاطعة، وإنما صاغ القصيدة في جملة إنجليزية واحدة وسليمة نحويا، الأمر الذي يدل على أن قصيدة الهايكو تقوم بتوظيف أسلوب وجماليات اللغة المكتوبة بها، بعيدا عن التقليد الحرفي.

المشهدان هنا متداخلان، ولا يمكننا أن نفصل مشهدا عن الآخر إلا أثناء عملية القراءة أو التأويل، كما رآهما الشاعر منفصلين ومتصلين قبل الكتابة، ثم قام بالمزج بينهما في نص القصيدة.

المشهد الأول أو الذي يطفو على سطح القصيدة هو المشهد الأساسي هنا، ويحضر المشهد الثاني في خلفية القصيدة ليبرز دلالة ما يفعله الصوت في هذه القصيدة.

هذا المشهد الأول يتمثل في التالي: المكان عبارة عن حانة أو جلسة لشخص وحيد في مكان عام أو خاص. الزمان هو المساء وهو وقت السمر أو الراحة من العمل أو الترويح عن النفس. الأشخاص: يوجد شخص وحيد في النص وبيده كأس واحد أو واحدة، ولا يكتفي هذا الشخص/الصوت في القصيدة بأن يضع قدرا قليلا من الخمر في الكأس كما هي العادة، وإنما يملأ هذا الكأس تماما. لماذا يقوم بذلك؟

للإجابة على هذا السؤال، يظهر لنا المشهد الثاني في القصيدة: هناك أشخاص غائبون، ونستنتج من طريقة تعبير النص أن هؤلاء الأشخاص أشخاص مفتقدون، أي يحتاج الصوت إلى وجودهم معه على المائدة ويفتقدهم، فهم لا يستطيعون الحضور لأسباب لا تظهر في النص، ولكننا يمكن أن نستنتج أنها أسباب تتعلق بالغياب أو التغييب، فربما

سافروا أو رحلوا أو ماتوا أو انقطعت علاقة الصوت بهم وما إلى ذلك من أسباب تؤكد أن حياة الصوت في زمن القصيدة خالية منهم.

أين حلقة الوصل بين هذين المشهدين؟ تتمثل هذه الحلقة في أن الصوت في القصيدة قام بعملية تخييل مكَّنتْه من أن يقوم باستحضار هؤلاء الأشخاص الغائبين عن المشهد وأن يشعر بوجودهم حوله برغم غيابهم، وأن يشرب نخبهم.

القصيدة بشكلها الحالي عبارة عن عالم كامل يجمع ما بين القصصية والشعرية بأسلوب بسيط ومكثف وعميق يدل على تحايل الإنسان على إحساسه بالوحدة من خلال توظيف الخيال واستحضار المشهد الغائب.

هذه القصيدة مروية بضمير المتكلم، ويوجد تطابق بين الصوت والشخصية الموجود في القصيدة، وسأتناول الآن قصيدة أخرى لباشو مروية بضمير الغائب، وتتسم بنفس سمات القصيدة السابقة:

where’s the winter shower?
with umbrella in hand
the monk returns

يعود الراهب متسائلا:
"أين أمطار الشتاء؟"
وفي يده الشمسيَّة

قمتُ بالتقديم والتأخير عند ترجمتي لهذه القصيدة، وهو من الأساليب المعترف بها في الترجمة حتى يخرج النص بلغة سلسة لقارئ اللغة المستهدَفَة، وهو القارئ العربي هنا. وهذا التقديم وهذا التأخير يتعلقان بالبنية السطحية للنص، فعلى مستوى البنية العميقة مازالت العلاقات بين عناصر النص كما هي، ومازالت طبيعة الشخصية الواردة في النص كما هي.

opeikan.com

أين المشهدان في هذه القصيدة؟ كما في القصيدة السابقة، هناك مشهد يطفو على السطح ويبرز أمام المتلقي وهناك مشهد آخر يتم الإيحاء به من خلال اختيار مفردات لغوية مميزة ودقة وصف المشهد الظاهر.

المشهدان الأساسيان هنا مشهدان زمنيان، أحدهما حاضر والآخر يتم استدعاؤه من خلال الفعل "يعود" ومن خلال "في يده شمسية". الزمن الحاضر هنا زمن غير فصل الشتاء، زمن يخلو من الأمطار التي كانت موجودة عندما غادر هذا الراهب المكان قبل ذلك، أما الزمن الغائب فهو فصل الشتاء الذي كان مليئا بالأمطار ورحل عنه الراهب ليذهب إلى صومعته ويعتزل "الأمطارَ".

أين حلقة الوصل بين هذين المشهدين؟ هي حلقة توجد في خلفية النص وفي صياغة خطابه اللغوي. وتبرز هذه الحلقة من خلال المفارقة المركَّبَة هنا: فسؤال هذا الراهب يتم تقديمه بطريقة تجعله تسخر من السائل ذاته: فكيف يسأل هذا الراهب عن الأمطار وهو الذي رحل عنها ليعتزل الحياة؟

كيف يسأل عنها وهو مازال ممسكا بشمسيته التي من المؤكد أنه كان يحتفظ بها في صومعته وربما كانت هذه الشمسية موضعا من موضوعات "تأمله" في هذا الصومعة؟ والفعل "يعود" يفترض أن هذا الراهب "رحل" أو "غادر" أو "انصرف" عن الأمطار التي كانت موجودة وكان هذا الراهب موجودا أيضا ساعتها.

وبالطبع، يمكن النظر إلى هذه القصيدة من زوايا تأويلية أخرى. فربما أدرك هذا الراهب أن رهبنته أبعدته عن الحياة، وأدرك أن الحياة الحقيقية هي الحياة التي ترسلها السماء في هيئة أمطار، ولذلك عاد ليعانق الحياة. ولكن وجود الشمية في يده يظل عاملَ قلق وتوتر ونقضٍ في القصيدة، فالشمسية وسيلة لصدِّ المطر، وسيلة لخلق حاجز بين الإنسان والطبيعة، وسيلة لرفض عطايا الله والطبيعة.